المحاضرة الرابعة عشر

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية في العصر العباسي الاول

المبحث الاول

ـ العلاقات مع البيزنطيين.

العلاقات في عهد الخليفة المنصور

بينما كانت الدولة العباسية مشغولة بشؤونها الداخلية لتوطيد حكمها والقضاء على الدولة الأموية، استغلت الدولة البيزنطية هذه الظروف للهجوم على الحصون والثغور الإسلامية. لهذا، أوعز الخليفة الأول أبو العباس إلى عمه عبد الله بن علي بإعداد الجيش لمواجهة البيزنطيين. لكن وفاة أبي العباس وتمرد عبد الله بن علي على الخليفة أبو جعفر المنصور حالا دون إرسال الحملة العسكرية، مما أعطى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس الفرصة لمهاجمة الثغور الإسلامية على الحدود، حيث دمر العديد من الحصون.

استجابةً لهذا الهجوم، قام الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨ هـ / ٧٥٣-٧٧٤ م) بتحصين الثغور وإعادة بناء ما دمره البيزنطيون، حيث قُسمت الثغور إلى قسمين: الثغور الجزرية، التي كانت مخصصة للدفاع عن الجزيرة وشمال العراق، ومن حصونها ملطية والمصيصة ومرعش، والثغور الشامية التي تقع غرب الجزرية وتهدف للدفاع عن الشام، ومن حصونها طرطوس وأدنة.

عمل الخليفة أبو جعفر المنصور على تعزيز هذه الثغور من خلال منحها حكماً إدارياً مستقلاً، وحشد فيها آلاف المقاتلين والمرابطين في سبيل الله، حيث منحهم الإقطاعات والمزارع للاستقرار فيها، ووزع عليهم الأموال، ونظم حملات الصوافي والشواتي التي كانت تُقام سنوياً براً وبحراً.

بهذا، وضع الخليفة المنصور حدًّا لتجاوزات البيزنطيين، مما منعهم من استغلال الأوضاع الداخلية في البلاد الإسلامية للهجوم على الثغور. كان من المهم أن يستفيد المرابطون من الأراضي الموزعة عليهم للزراعة أثناء السلم، مما جعلهم مرتبطين بالأرض ويدافعون عنها بشكل أفضل، حيث كان معاشهم ومعاش عائلاتهم يعتمد على هذه الأرض، وقد نقل الكثير من هؤلاء الجنود عوائلهم إلى تلك المناطق. وفي عهد المنصور، تمت أول عملية فداء بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦م.

العلاقات في عهد الخليفة المهدي العباسي

في عهد الخليفة محمد المهدي (١٥٨-١٦٩ هـ / ٧٧٤-٧٨٥ م)، استمر الاهتمام بتحصين الثغور المطلة على الحدود البيزنطية وشحنها بالمقاتلين. فقد أوصى المنصور ابنه المهدي بقوله: "وليكن أهم أمورك إليك، أن تحفظ أطرافك، وتسد ثغورك، وارغب إلى الله في الجهاد والمحاماة عن دينك، وإهلاك عدوك، بما فتح الله على المسلمين، وابذل في ذلك مهجتك، ونجدتك ومالك، وتفقد جيوشك ليلك ونهارك، واعرف مراكز خليلك، ومواطن رحلك، وبالله فالتكن عصمتك وحولك وقوتك".

يمكننا تتبع تلك الوصية من خلال كثرة حملاته العسكرية إلى بيزنطة. ففي سنة ١٥٩ هـ / ٧٧٥ م، أرسل المهدي حملة للرد على هجوم البيزنطيين في عهد ليون الرابع الذي هاجم سمياط، واستطاع أن يأخذ بعض الأسرى، لكن الحملة لم تتمكن من فتح مدينة أنقرة. وأثناء عودتها، أمر المهدي بإنزال ٢٠٠٠ مقاتل في حصن المصيصة.

في سنتي ١٦٠ و١٦١ هـ / ٧٧٧-٧٧٨ م، كانت هناك صائفتان على التوالي، لكن البيزنطيين فاجأوا الجيش الإسلامي وأوقعوا به. فأرسل الخليفة محمد المهدي الحسن بن قحطبة بن شبيب على رأس جيش كبير، فتوغل في بلاد الروم ودمر كل ما وقع عليه من مواقع البيزنطيين، انتقاماً لما فعله القائد الرومي ميخائيل في بلاد الثغور الإسلامية.

كرر البيزنطيون هجومهم في السنة التالية، حيث هاجموا حصن الحدث وخربوا سور هاشم، ثم واصلوا التخريب حتى وصلوا إلى حدود الشام. فوجه المهدي الحسن بن قحطبة على الصائفة، على رأس جيش تعداده ٣٠,٠٠٠ مقاتل معظمهم من العراق والحجاز، فتوغل هذا الجيش في بلاد الروم وأدخل الرعب في صفوفهم.

وفي سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩ م، سار المهدي على رأس جيش كبير أشرف على إعداده بنفسه، ورافقه ابنه هارون الرشيد، وأناب ابنه موسى الهادي في بغداد. خلال هذه الحملة العسكرية، رافقهم الحسن بن قحطبة والربيع بن يونس، وسار المهدي مع الجيش إلى الموصل، ثم اتجه إلى حلب حيث قتل بعض الزنادقة فيها، ثم رجع إلى بغداد تاركاً قيادة الجيش إلى هارون الرشيد.

أثناء توجه الرشيد صوب بلاد الروم، توفي ليون، فحكمت زوجته إيرين وصية على ابنها الصغير قسطنطين. فتوغل هارون الرشيد في بلاد الروم وتوجه صوب حصن "سمالو"، وحاصره ٣٨ ليلة حتى فتحه، ثم فتح مدينة طرسوس وحصونها نظراً لأهميتها العسكرية وموقعها الاستراتيجي في الحرب ضد البيزنطيين.

أما صائفة عام ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م، فقد أُسندت قيادتها إلى عبد الكبير بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، لكن الجيش البيزنطي انتصر عليه. فعنفه الخليفة محمد المهدي، وهم بإعدامه لولا توسط رجال البلاط، ثم حبسه في المطبق. بعد ذلك، أعد المهدي جيشاً كبيراً جداً، قيل إن عدده تجاوز ٩٥,٠٠٠ مقاتل، وأسند قيادته إلى ابنه هارون. وقد فتح عدداً من الحصون

مثل حصن ماجده، وتقدم حتى وصل مضيق البسفور، مما اضطر الإمبراطورة إيرين إلى طلب الصلح. وافق هارون الرشيد على ذلك، وتم توقيع الهدنة بين الطرفين التي نصت على ما يأتي:

١. عقد هدنة لمدة خمس سنوات.
٢. التعهد بدفع جزية سنوية مقدارها بين ٧٠ - ٩٠ ألف دينار.
٣. تجهيز الجيش الإسلامي بالأدلاء.
٤. تسهيل مهمة تموين الجيش أثناء رجوعه.

في طريق العودة، قام هارون الرشيد بتحصين المصيصة وزاد في حاميتها العسكرية. وغنم المسلمون غنائم كثيرة في هذه الحملة، حيث بيع البغل بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم، وعشرون سيفاً بدرهم. لكن البيزنطيين لم يلتزموا بالاتفاق، فنقضوا المعاهدة ورفضوا الصلح.

أما بالنسبة للحملات البحرية، فلم تكن كما كانت عليه الحال في عهد الدولة الأموية، حيث لم تهتم الدولة العباسية بالأسطول كما كان في الأموية. وقد منح ذلك الفرصة للأسطول البيزنطي لمهاجمة سواحل مصر وأفريقيا وغيرها من المناطق. لكن العباسيين ركزوا على الجيوش البرية وأرسلوا حملات ضد البيزنطيين، مكتفين بتحصين مدن السواحل للدفاع عنها، باعتبارها أرضًا إسلامية يجب حمايتها.

تسجل لنا كتب التاريخ ثلاث حملات عسكرية بحرية في عهد المنصور والمهدي:

١. حملة بحرية توجهت صوب قبرص سنة ١٥٦ هـ / ٧٧٢ م واستطاعت أن تأسر حاكم المدينة.
٢. حملة ثمامة بن وقاص على سواحل بلاد الروم سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م، حيث حاولت بعض السفن البيزنطية قطع الإمدادات عن الأسطول الإسلامي، لكن التعاون بين قطع الأسطول المختلفة أفشل خطة الروم.
٣. حملة الغمر بن العباس الخثعمي، التي توجهت صوب جزر بحر الشام سنتي ١٦٠ و١٦١ هـ / ٧٧٦-٧٧٧ م.

العلاقات في عهد الخليفة هارون العباسي

أما عن العلاقة بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ / ٧٨٦ – ٨٠٨ م)، فقد كان الخليفة حريصًا على مراقبة الحدود الإسلامية الملاصقة للدولة البيزنطية. وكانت تلك العلاقة تتسم بالعداء، مما أظهر هارون الرشيد بمظهر المحارب المدافع عن الإسلام.

حملاته، سواء التي قادها بنفسه أو التي أمر بها، كانت في الغالب غير منظمة وبدون خطة واضحة للفتح، حيث كان يكتفي بالحصول على الجزية بعد كل انتصار. ومع ذلك، أثبتت هذه الحروب التفوق العسكري للعرب على أعدائهم.

يبدو أن هارون الرشيد كان واعيًا لصعوبة التضاريس الطبيعية، وعدم قدرة الجنود على البقاء في بلاد الروم خلال فصل الشتاء، حيث الثلوج والأمطار، لذا اكتفى بتنظيم هذه الحملات لإظهار قوة الدولة الإسلامية وحرصها على حماية حدودها.

كما قام الخليفة بتنظيم إدارة المنطقة الحدودية مع البيزنطيين، حيث فصل منطقة الثغور عن ولاية الجزيرة في عام ١٧٠ هـ، وأنشأ منطقة جديدة أطلق عليها اسم العواصم. وقد وضعت الدولة خطين دفاعيين لحماية حدودها: الأول هو الثغور، والثاني هو العواصم الواقعة إلى الجنوب منها، والتي سُميت بهذا الاسم لأن المسلمين يتجمعون فيها للحماية من أي هجوم على الثغور.

قسم الرشيد المنطقة إلى ثلاثة أجزاء:

١. المنطقة الشرقية: تشمل حصون قاليفلا وكمخ وقلوديه.
٢. المنطقة الوسطى: تضم حصون الحدث وزبطرة وملطية.
٣. المنطقة الغربية: تضم حصون المصيصة وطرطوس وأدنة.

كان خط الفصل بين الثغور والعواصم يمتد من منبج إلى أنطاكية، حيث كانت الثغور تقع شمال هذا الخط، بينما تقع العواصم إلى الجنوب منه، ومركز العواصم كان مدينة منبج.

قام الرشيد بتعزيز الجبهة البيزنطية عبر بناء حصون جديدة وترميم القديمة، حيث أنشأ حصن كفربيا بجوار المصيصة، وبنى حصن عين زربة، وأعاد بناء حصن الكنيسة السوداء في مدينة الحدث، كما بنى حصن زبطرة وعمر طرسوس بعدد كبير من المقاتلين، قيل إن عددهم تجاوز الستة آلاف.

علاوة على ذلك، أبدى هارون الرشيد اهتمامًا بالأسطول البحري، حيث أضاف قطعًا بحرية جديدة للتصدي لتحرشات البيزنطيين. ففي عام ١٧٤ هـ / ٧٩٠ م، هاجم الأسطول البيزنطي السواحل الإسلامية وأسَر بعض الجنود في البحر المتوسط. تحرك الأسطول الإسلامي من مصر إلى قبرص، ثم انطلق إلى آسيا الصغرى حيث التقى بالأسطول البيزنطي في خليج إيطاليا، وهزمه وأسَر أمير البحر البيزنطي، مما يدل على قوة الأسطول الإسلامي وقدرته على تنفيذ عمليات هجومية في قلب الأراضي البيزنطية.

وفيما يتعلق بالحملات البرية، قاد الرشيد عدة حملات، حيث في عام ١٨١ هـ / ٧٩٧ م، قاد حملة عسكرية تجاه بلاد الروم، وتصدى له قسطنطين السادس، لكنه عاد إلى القسطنطينية بعد أن خُلع، وأصبحت والدته إيريني إمبراطورة. استطاع الرشيد فتح حصن الصفصاف، وأرسل عبد الملك بن صالح إلى أنقرة حيث افتتح مطمورة.

رفض الخليفة في البداية طلب إيريني لعقد هدنة، بسبب تكرار نقض البيزنطيين للهدن، لكنه وافق لاحقًا بعد أن طلبها مرة أخرى. كانت هناك عملية فداء تمت خلالها مبادلة ٣٧٠٠ أسير مسلم.

ثم شهدت الدولة البيزنطية تغييرات أدت إلى توتر العلاقات بين الدولتين. في عام ١٨٧ هـ / ٨٠٢م، تولى نقفور العرش بعد خلع إيريني، وقطع الجزية، وأرسل رسالة إلى هارون الرشيد جاء فيها: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب: أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وجعلت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثاله إليها... فإني إذا قرأت كتابي، فأردد ما حصل من أموالها، وإلا فالسيف بيننا وبينك."

غضب الرشيد عندما قرأ الكتاب، فرد عليه برسالة تعكس اعتزازه بقوته: "بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام."

قاد الرشيد جيشًا كبيرًا واحتل حصن الصفصاف ودبسة، حيث تقدمت مقدمة جيشه إلى أنقرة. رغم تقدمه، تراجع نقفور وبدأ بالتفاوض مع الرشيد لتجديد الصلح. وافق الخليفة على الصلح بشرط ألا يبني نقفور الحصون المهدمة وأن يدفع عن كل روم جزية مقدارها دينار واحد، فيما عفي الإمبراطور وابنه من دفعها.

بعد ذلك، استغل نقفور الوضع وعاد لنقض الصلح، وبنى حصونًا جديدة. في عام ١٨٩ هـ، عاود الرشيد الهجوم وتمكن من إجبار نقفور على طلب الصلح ومبادلة جميع الأسرى المسلمين.

أثناء انشغال الرشيد بأحداث خراسان، استغل نقفور الوضع لصالحه، حيث خالف بنود الصلح وبنى حصونًا جديدة مثل أنقرة ودبسة والصفصاف، بينما استطاعت حامية المصيصة العربية أن تستعيد معظم الأسرى والغنائم من يده.

وفي عام ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م، توجه الرشيد بجيش كبير تعداده ١٣٥ ألف مقاتل، وتمكن من فتح هرقلة بعد حصار دام شهرًا، ثم فتح حصون الطوانة والصقالبة ودبسة وحصن ذي الكلاع، مما أجبر نقفور على طلب الصلح. وافق الرشيد على التفاوض شرط أن يدفع نقفور جزية سنوية مقدارها ٣٠٠٠٠٠ دينار، وأن يدفع عن نفسه جزية مقدارها أربعة دنانير سنويًا، وعن ابنه دينارين، مما يثبت اعترافه بأنه تحت ذمة الخليفة.

كما اشترط الرشيد أن لا يبني نقفور حصونًا جديدة، وتعهد بأن يعيد إلى الروم حصن الكلاع وحصن سنان سالمين. ومع ذلك، نقض نقفور الصلح مجددًا، مما أدى إلى عودة الحرب بين الطرفين دون تحقيق أي نتائج إيجابية.

في عهد الخليفة المأمون.

في عهد الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨ – ٢١٨ هـ / ٨١٣ – ٨٣٣ م)، استمرت الصراعات العسكرية بين المسلمين والروم. اتبع المأمون خطة والده الرشيد بالاهتمام بالثغور والعواصم، مؤكدًا على ضرورة تعزيزها بالقوات والميرة. ويبدو أن لديه خطة هجومية تجاه القسطنطينية،

على الأقل لإبعاد البيزنطيين عن الحدود الشمالية للدولة الإسلامية، وبالتالي إنهاء الاعتداءات البيزنطية المتكررة ودعمهم للتمردات في أرمينية وأذربيجان.

استفاد المأمون من بعض الخلافات الداخلية في الدولة الرومانية، حيث دعم توماس الصقلبي في تحركه وقدم له مساعدات متنوعة، لكن تلك الحركة لم تنجح. جاءت خطوة المأمون ردًا على الدعم الذي قدمه الإمبراطور البيزنطي لحركة بابك الخرمي، حيث أصبحت البلاد الرومانية ملاذًا للخرميين، أتباع بابك.

وفي عام ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م، استغل البيزنطيون انشغال المأمون بأحداث مصر، فهاجموا طرسوس والمصيصة، وقتلوا العديد من المسلمين. فتوجه إليهم الخليفة المأمون وقيادته للصائفة ضدهم، حيث توغل في أراضيهم واحتل هرقلة القريبة من عمورية، وافتتح عدة نقاط محصنة. أرسل تيوفيل بن ميخائيل رسالة إلى المأمون طالبًا عقد هدنة، تضمنت الشروط التالية:

١. إبرام هدنة لمدة خمس سنوات.

٢. الانسحاب من الحصون التي احتلها المسلمون.

٣. التعهد بدفع جزية سنوية مقدارها ١٠٠ ألف دينار.

٤. إعادة جميع الأسرى المسلمين، الذين بلغ عددهم ٧٠٠٠ أسير.

رفض الخليفة عبد الله المأمون شروط الصلح، واستمر في القتال في السنة التالية، حيث فتح حصن لؤلؤة وبنى حصن الطونة، محصنًا إياها بسور طوله ثلاثة فراسخ. يبدو أن المأمون قد رفض عرض الإمبراطور البيزنطي لأنه كان يعرف أن البيزنطيين يطلبون الصلح عندما يتقدم الجيش الإسلامي، لكنهم ينقضون ذلك عندما ينصرف الجيش، بالإضافة إلى استغلالهم للاضطرابات الداخلية في الدولة الإسلامية، ولتكرار نقض البيزنطيين للمعاهدات.

بعد الإجراءات التي اتخذها المأمون لتقوية الحدود، أرسل الإمبراطور البيزنطي رسالة إليه جاء فيها: "أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على خطهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما...". فرد عليه المأمون: "أما بعد، فقد بلغني كتابك بشأن الهدنة...". واستمر المأمون في تحصين الثغور، حيث قام بتحصين مدينة الطونة في عام ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م، وجلب الجنود إلى العواصم من العراق وسورية ومصر. يبدو أنه كان يفكر في خطوة جريئة لفتح بلاد الروم، حيث يُروى أنه استعد لحصار عمورية وقال: "أوجه إلى العرب فآتي بهم من البوادي، ثم أنزلهم في كل مدينة أفتحها حتى أضرب القسطنطينية". لكن الوفاة أدركت المأمون قرب نهر البدندون، وهو يقود الجيش الإسلامي لمواجهة الروم البيزنطيين.

العلاقات في عهد الخليفة المعتصم حتى نهاية عصر المتوكل

أما في عهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤١ م)، فقد اتبع سياسة أخيه المأمون في مواجهة البيزنطيين الذين بدؤوا بغزو حدود الدولة الإسلامية. كان قد أمر المأمون ببناء حصن

الطونة، وبدأت أعمال البناء في ميلٍ بميل، مع تحصين السور بطول ثلاثة فراسخ وأربعة أبواب. وعندما توفي المأمون، أمر المعتصم بالانسحاب من الطونة وتدمير ما يمكن تدميره من مواد البناء.

في عام ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م، غزا تيوفيل بن ميخائيل الأراضي الإسلامية وتوجه نحو زبطرة، حيث قتل العديد من الرجال وسبي النساء والأطفال، مما أثار استياء المعتصم، الذي جمع العساكر ووجههم نحو بلاد الروم. وقد استعد الخليفة المعتصم بشكل غير مسبوق من حيث السلاح والعدد والعتاد، وتوجه نحو أنقرة، ثم إلى عمورية، التي تعتبر من أجمل مدن الدولة البيزنطية. أمر المعتصم بردم خندق عمورية باستخدام جلود الأغنام المملوءة بالتراب، وأعد دبابات كبيرة تسع عشرة رجال لتحطيم السور، واستمر القتال حتى تم فتح المدينة. ثم أمر المعتصم بحرق مدينة عمورية وهدم سورها انتقامًا لما فعله الإمبراطور البيزنطي بمدن المسلمين.

كانت غنائم المسلمين في هذه الحملة كبيرة جدًا، فقد أمر المعتصم بعزل الأسرى ذوي الشرف، ونُقل الآخرون، وتمت عمليات بيع الغنائم بسرعة.

في عهد الواثق بالله (٢٢٧ – ٢٣٢ هـ / ٨٤١ – ٨٤٦ م)، جاء وفد بيزنطي يطلب الفداء في عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م، فوافق الواثق على الطلب وعهد إلى أحمد بن سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي بالإشراف على الفداء. في العاشر من محرم عام ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م، اجتمع المسلمون والأسرى عند ضفاف نهر البدندون، حيث تم تبادل الأسرى بين الطرفين.

بعد انتهاء عملية الفداء، غزا أحمد بن سعيد المسلمين، لكن سوء الأحوال الجوية أدى إلى وفاة نحو مائتي شخص، بينما غرق آخرون في نهر البدندون. كما استولى أحمد بن سعيد على نحو ألف رأس من البقر وعشرة آلاف شاة، مما أغضب الواثق، فعين نصر بن حمزة الخزاعي بدلاً عنه.

في عهد المتوكل على الله (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ – ٨٦١ م)، استمرت الحروب بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية. فقد غزت سفن بيزنطية في عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م دمياط، ونهبت ما فيها وأحرقت المسجد الجامع، وسُبي حوالي ستمائة امرأة مسلمة وذمية.

شهدت عهد المتوكل عمليتي فداء مع الروم، الأولى في عام ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م، حيث طلبت ملكة الروم الفداء. كان عدد الأسرى المسلمين الذين تم فداؤهم ٧٨٥ رجلاً و١٢٥ امرأة. العملية الثانية كانت في عام ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م، وتم فيها فداء ٢٣٦٧ شخصًا.

نفذت عدة حملات برية إسلامية بقيادة بغا الكبير في عام ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م، وفتحت صملة، بينما قاد علي بن يحيى الأرمني الصائفة في عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م، حيث أسر بطريق لؤلؤة بمقابل فدية قدرها ألف أسير. وفي نفس السنة، هاجمت الروم سمياط، مما أسفر عن قتل

وسبى العديد من أهلها، وتوجه عمرو بن عبد الله الأقطع نحو الصائفة وفتح قريباس، بينما قاد الفضل بن قارن عشرين مركبًا وفتح حصن أنطاكية.

المبحث الثاني

العلاقات مع الافرنج وقبائل البجة

ـ العلاقات مع الافرنج.

تشير المصادر الغربية إلى وجود علاقات سياسية بين الدولة العباسية في عهد الخليفة هارون الرشيد والدولة الكارولنجية بقيادة شارلمان. هذه المصادر قدّمت وصفًا تفصيليًا لهذه العلاقات وأكدت تبادل عدة سفارات بين الجانبين. كان شارلمان يسعى للحصول على دعم الخليفة العباسي لتعزيز موقفه داخليًا وخارجيًا. تم تحديد تواريخ هذه السفارات، حيث أُرسلت إحداها إلى الرشيد في عام ١٨١هـ/٧٩٧م، وأخرى في عام ١٨٣هـ/٧٩٩م إلى بطريرك القدس، ثم أُرسلت سفارة أخرى إلى الرشيد عام ١٨٦هـ/٨٠٢م. بدوره، رد الخليفة العباسي بإرسال سفارة عام ١٨٥هـ/٨٠١م، ضمت اثنين، أحدهما يمثل الرشيد والآخر إبراهيم بن الأغلب. وذكرت المصادر الغربية تبادل الهدايا بين الطرفين، حيث تضمنت الهدايا التي أرسلها الرشيد إلى شارلمان ساعة مائية، إلى جانب العطور، الأقمشة الحريرية، البلسم، والأواني النحاسية.

فيما يتعلق بأسباب هذه العلاقات، يذكر المؤرخون الغربيون ما يلي:

١. رغبة شارلمان في فتح الأندلس، وحاجته إلى دعم الخليفة العباسي معنويًا حتى لا يواجه معارضة من عرب الأندلس، خاصة بعد فشل محاولاته السابقة لاقتحامها.

٢. التوتر بين شارلمان والبيزنطيين حول وراثة الإمبراطورية الرومانية، وزاد من تعقيد الوضع العداء بين البابا وبطريرك القسطنطينية حول السيادة الروحية على المسيحيين.

٣. سعي البابا، حليف شارلمان، إلى تعزيز علاقاته مع بطاركة الإسكندرية وأنطاكية والقدس لدعم موقفه.

٤. رغبة شارلمان في تسهيل الحج إلى الأراضي المقدسة وتعزيز نفوذه الروحي في تلك المناطق.

أما مصالح هارون الرشيد فتتمثل في:

١. العداء مع البيزنطيين، وسعيه إلى تقويض نفوذهم الروحي بين مسيحيي الشام والجزيرة عن طريق تقوية علاقاته مع الغرب.

٢. موقفه العدائي تجاه الدولة الأموية في الأندلس.

عند تحليل هذه السفارات، يمكن القول:

١. إن غياب الإشارة إلى هذه السفارات في المصادر الإسلامية يعزز الشك في وجودها، خصوصًا وأن هذه المصادر تناولت بشكل مفصل استقبال الوفود الأجنبية.

٢. يبدو أن المؤرخين الغربيين فهموا ظروف شارلمان، لكنهم لم يفهموا ظروف هارون الرشيد. فالرشيد كان منتصرًا في صراعه مع البيزنطيين وفرض عليهم الجزية، ولم يكن بحاجة إلى دعم من دولة أجنبية.

٣. لم يشكل مسيحيو الشام في تلك الفترة أي تهديد للدولة الإسلامية، ولم يظهروا ميولًا معادية لها.

٤. كيف كان بإمكان الرشيد معرفة قوة شارلمان مع بُعد المسافة بينهما؟ وهل من المعقول أن يتحالف أمير المؤمنين مع ملك غير مسلم لضرب الأندلس، خاصة في وقت اضطر فيه الرشيد للتخلي عن إفريقية لإبراهيم بن الأغلب، وهي أقرب جغرافيًا مقارنة بالأندلس؟

٥. العلاقة بين شارلمان والبيزنطيين كانت ودية، والدليل هو طلب الإمبراطورة البيزنطية إيريني الزواج من شارلمان لتشكيل تحالف مقدس.

٦. من غير المنطقي أن يتمكن شارلمان من كسب دعم عرب الأندلس بمساعدة من الخليفة العباسي لاحتلال بلادهم، في وقت لم تعترف فيه الأندلس بسيادة العباسيين مطلقًا، بل قاومت كل محاولات استعادتها.

٧. لا يعقل أن يقبل الرشيد منح الحماية لشارلمان على مسيحيي الشرق، الذين كانوا جزءًا من دولته.

٨. من المستبعد أن يطلب الرشيد من شارلمان أن يكون نائبًا عنه في تطبيق الشريعة الإسلامية في الأندلس، أو أن يمنحه مفاتيح القدس، التي كانت مدينة إسلامية تحت سيادة العباسيين، وهي أولى القبلتين وثالث الحرمين.

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن ما ذكرته المصادر الغربية عن وجود علاقات سياسية لا يتجاوز العلاقات التجارية التي كانت قائمة. عندما كان التجار يزورون الدول الأجنبية، كانوا يقدمون الهدايا للحكام للحصول على امتيازات تجارية، وربما كانت بعض المحادثات تتطرق إلى أوضاع البلاد الأخرى، بما في ذلك البلاد الإسلامية.

تشير بعض المصادر العربية، وخاصة الجغرافية، إلى وجود علاقات بين الشرق الأقصى والعالم الإسلامي وحوض البحر المتوسط، حيث كان التجار يتنقلون بحرية بين هذه المناطق ويتحدثون لغات متعددة مثل العربية، الفرنسية، الهندية، والصينية.

ـ العلاقات مع قبائل البجة:

تسكن قبائل البجة في جنوب مصر، وكان بينهم وبين المسلمين اتفاق قديم يقضي بأن يحتفظوا بدينهم مقابل دفع الجزية. كانت أراضيهم تحتوي على مناجم للذهب والفضة، يدفعون عنها الخمس للمسلمين. ومع مرور الوقت، تمردت قبائل البجة على الخلافة العباسية، مما دفع المسلمين الذين كانوا يعملون في أراضيهم إلى الفرار واللجوء إلى مصر.

تمرد البجة حدث في عهد الخليفة المتوكل على الله، مما أثار استياء المقربين منه. بعضهم نصح الخليفة بتركهم وشأنهم، بحجة أنهم يعيشون في الصحراء وفي ظروف قاسية تجعل من الصعب على الجيش القضاء عليهم. فأخذ المتوكل بهذه النصيحة وتركهم.

لكن تمرد البجة اشتد، وأصبحت شوكتهم أقوى، مما أثار خوف أهل الصعيد. حينها كلف المتوكل محمد بن عبد الله القمي بقيادة جيش لمحاربتهم. انطلق محمد بجيشه، مصطحباً معه سفنًا محملة بالمؤن مثل الدقيق، التمر، الزيت، الشعير، والسويق. عندما وصل إلى حصون البجة، كان ملكهم يُدعى علي بابا. في البداية، لم يأخذ علي بابا تهديد الجيش المسلم بجدية،

معتقدًا أن الحرب ستطول حتى تنفد مؤنهم وعلف خيولهم. لكن عندما أدرك علي بابا أن الجيش المسلم مستعد بشكل جيد، بدأ في القتال بجدية.

اندلعت معركة شديدة بين الجيش الإسلامي وقبائل البجة. استخدم المسلمون خطة ذكية لإثارة ذعر إبل البجة، حيث علّقوا أجراسًا على خيولهم وهجموا بها على جيش البجة، مما أدى إلى هروب الإبل وفرارهم، وتبعهم الجيش الإسلامي مطاردًا لهم في كل مكان.

في نهاية المطاف، طلب ملك البجة الأمان من القائد المسلم، الذي وافق عليه وطلب منه مرافقة الجيش إلى الخليفة المتوكل في سامراء. فوّض علي بابا ابنه لعيس لحكم البجة خلال غيابه، وسافر هو إلى سامراء. هناك استقبله المتوكل بحفاوة، وعفا عنه، وأعاده حاكمًا على البجة كما كان. استُعيدت الهدنة بين المسلمين والبجة كما كانت سابقًا، وعادوا لدفع الأموال المتأخرة عليهم. بعدها، أرسل المتوكل علي بابا معززًا مكرمًا إلى بلاده.